علاقة الوالدين بالأبناء

بقلم المربية الفاضلة

الآنسة زينب الحكيم

العلاقات البشرية تقوم حياتنا أو تتلفها ، فتؤثر علينا فى بيوتنا مع والدينا وأصدقائنا ، وفى حياتنا العملية ، وفى اجتماعاتنا العامة اليومية ؛ ومن الغريب أن أكثر الناس لايبالى بهذه العلاقات ولا يفكر فى عواقبها .

ينسى الكثيرون أن مخالطتنا إنساناً آخر توقظ فينا اتجاهاً خاصاً ، وبهذا الاتجاه الذى يعاودنا من تكرار المقابلات بيننا وبين ذلك الشخص تنشأ العلاقات بيننا وبينه. فإذا آمنا بهذه الحقيقة وجب علينا أن نؤمن بوجود علاقة طبيعية بين الطفل ووالديه .

وينتظر الكثيرون منا أن تكون تلك العلاقة متلائمة متزنة وفق الصلة الطبيعية هذه . ولكن الحقيقة أن هذه العلاقة تنشأ وتنمو ككل العلاقات الأخرى نتيجة للتجارب الشخصية ، والانفعالات الفطرية ، والمواهب العقلية ، والحالات الاجتماعية ؛ وإن كانت كلها موروثة ، ونقول موروثة لأن الاستعداد الموجود أو النزعة الموجودة إلى العمل لم يتعلمها الإنسان عن طريق المران والتكرار ، وإنما وجدت فيه طبيعية فطرية موروثة لأنه ولد كذلك ، ولأن الصفات التى نجدها فى كل من الأبناء والآباء أثبت العلم أنها تنتقل من الآخرين إلى الأولين عن طريق الوراثة (مثل الاجتماع والهرب فنجدها عند الآباء والأبناء فى جميع الأجيال) .

وفى فحص أى نوع من الحالة السلوكية فى الطفل يجب أن يفهم الفاحص البسيكولوجى بوضوح : أى العوامل يؤثر فى العلاقة بين الطفل وبين والديه ؟ (نريد أن يتحقق ما إذا كانت من جهة الرابطة الطبيعية أو العقلية أو الاجتماعية ... الخ)

لأمثال هذه المعضلات لا يحسن فقط تلك العلاقة التى يطلب الآباء النصح من أجلها ، وإنما يمنع حدوث متاعب مستقبلة . ولن أحاول مناقشة الأنواع المختلفة لمشكلات سلوك الأطفال فى هذا المقام ؛ وانما يهمنى أن أشير إلى أهمية العلاقات بين الآباء وأبنائهم ، وأوضح كيف أن هذه العلاقات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكل ما يلاقيه الآباء من مصاعب مع أطفالهم :

ولكي يكون الأمر جلياً سأتناول على انفراد كل حالة من الحالات الأربع التي تصل الآباء بأبنائهم وهي : (١) الرابطة الطبيعية ، (٢) الرابطة الانفعالية ، (٣) الرابطة العقلية ، (٤) الرابطة الاجتماعية .

الرابطة الطبيعية

أولا ليكن معلوماً لدينا أن العلاقة بين الآباء وأبنائهم لها معنى طبيعي محدود خاص : وهذه الرابطة الطبيعية ترجع إلى ما يسميه الانكليز Germ-Plasm (أي النطفة المشتركة التي يتكون منها الطفل) أو الزوجية التي نشأ منها الطفل ، ولا ريب أن هناك ميزات طبيعية ثابتة توضح علاقة الطفل برجل وامرأة ، هما أمه وأبوه .

والأطفال الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، يمكن أن يتباينوا كثيراً من حيث طبيعتهم وعقليتهم وانفعالاتهم ، ولكنهم يحتفظون جميعاً بتلك الرابطة الطبيعية الأولية بوجه عام ، (أي الدم العائلي أو الروح العائلية) . وكثيرا ما نسمع « هذه العائلة دماؤها واحد أو روحها متشابهة » ، وبناء على ما لهذه الصلة الطبيعية من وجود حقيقي وتأثير فعال نرى معظم الآباء والأمهات يحاولون الآن الحرص على التخلص من نقط الضعف الطبيعية في تكوين الطفل ، فهم مثلاً يوجهون عناية خاصة لإصلاح حال القلوب والرئات الضعيفة والأرجل الكسيحة والأعين المريضة ، ولم يقتصر الأمر على المتأهلين للزواج فحسب ، بل نرى الحكومات تعنى العناية كلها بسن القوانين وإسداء النصح في هذا الصدد ، بل لقد تحول دون زيجات الأفراد المصابين بالأمراض المزمنة سواء أكانت صحية أم خلقية .

ونسمع الكثير عن إنشاء ملاجئ ، لعزل أمثال هؤلاء (وقد اهتمت الحكومة المصرية بسن تشريع لتحسين نسل الحيوان نشر ببلاغ الأحد ٢١ مايو سنة ١٩٣٣) .

ويسر الإنسان في هذا العهد أن يرى الأمهات لا يبالين بأية مشقة تنالهن في سبيل السعي لإصلاح حال أطفالهن ، ولقد يمشين الأميال العديدة المضنية على أقدامهن ليعرضن أبناءهن على الأطباء لكي ينالوا العلاج الضروري . وهذه حال نشاهدها حتى في مصرنا المعتبرة أقل من غيرها في العالم تنبها وعناية . ولقد نشاهدها في الأمهات العاميات حين ذهابهن إلى مستشفى قصر العيني وغيره . وبالاختصار أصبحت هذه الناحية الإصلاحية ذات شأن لا يمكن أن يغفل أمر العناية بها بين الطبقات المثقفة والجاهلة إلى حد ما ، وذلك لأن الأمهات يرين حالات ظاهرة أمامهن لا يسمحن بالتهاون فيها ، وإلا عاقت نمو الطفل وأقعدته .

ومع هذا ـ بالنسبة لحال الطفل الصحية الطبيعية ـ فإن من الصعب أن نوجه انتباه الوالدين

إلى تمييز أهمية العوامل التى لاترى بالعين المجردة والتى تؤثر بعمق وشدة.ليس فقط فى طبيعة الطفل وإنما : فى عقليته ، وفى انفعالاته الصحية ، وفى علاقاته الاجتماعية أيضاً ، خصوصاً إذا تقدمت به السن .

كلنا نعلم أن الطفل يحتاج إلى الغذاء والنوم والثياب بفطرته ، على أنه أكثر احتياجا إلى عادات خاصة ، للأكل والنوم ، والمحافظة على لوازمه ، وربما كان ذلك أهم لهمن الأشياء نفسها. وبعبارة أوضح : لا يجب على الآباء أن يمدوا أطفالهم بضروريات الحياة وكفى ،بل يجب أن يعلموهم كيف يتمتعون بتلك الضروريات أكمل تمتع .وربما وضحت النقطة المتقدمة المثال الآتى:

الطفل أحمد عمره خمس سنوات كان قد أحضر إلى « معمل تجريبى » لأنه أبى أن يأكل طعامه ، ولأنه كان يتشاجر دائماً مع أخته بخصوص لعبه .

وقالت والدته : إن لها طفلين هما أحمد هذا وسعاد وعمرها سبع سنوات،وقررت أيضاً أنها لاترغب أن ترزق بغيرهما ، لأنها تشعر هى وزوجها أنهما لا يستطيعان القيام بتعليم طيب وتربية حقة ، لأسرة كبيرة العدد .

وكانت حالة الأب المالية طيبة ومنزلها مريحاً ، ولم يكن الطفل أحمد قوياً بدرجة حسنة ، مع أنه لم يصب بمرض خطير،وباختبار حالته الصحية وجد أنه شديد النحافة قلق Restless،أما أعضاؤه فكانت كلها سليمة .

ولما بحثت حالات أكله ونومه ، وجد أنه لم يقتصر على اختيار ما سيأكل ،وإنما استطاع أيضاً أن يعين متى يأكل ، واعتاد أن يأكل قليلا على المائدة فى أوقات الطعام لأنه زاهد فى الأكل (بحجة أنه لايحب هذا اللون من الطعام) ، وهذه حالة شائعة ومشاهدة كثيراً فى مدارسنا المصرية ، وفى المدارس بالبلاد الأجنبية ، ولا يلبث أن يطلب كعكة أوشكلاته بعد ساعة من الزمن لأنه ميت من الجوع . (لنا رأى خاص فى هذا الصدد قد نعرض له بتوسع على حدة).

وكان ذهابه إلى الفراش بإرادته فى أى وقت بين الساعة السادسة والسابعة والنصف،ولم تكن أمه توقظه فى الصباح مطلقاً ، بل كانت تتركه ليستيقظ من نفسه ، ولم يرشد أحمد إلى كيفية المحافظة على لعبه ، فقد كان يتركها ملقاة فى أى مكان وضعت به أو استعملت فيه ، وكانت تتكسر أو تضيع فى الحديقة أو يتلفها المطر أو الشمس .

وإذا أراد أن يلعب بشىء من لعب أخته سعاد فكان يفعل ذلك دون استئذان ، وكان يعامل لعبها بنفس مايعامل به لعبه ، فكانت نتيجة ذلك كثرة الشجار بينهما . وكانت سعاد تتمتع بعطف والدها ، فكانت لذلك تستنصره فى مشاجراتها مع أحمد، وبالتالى كان ينال أحمد التعنيف العديد وبعض الضرب من أبيه ، وبذلك نشأت عدة مجادلات بين الأم والأب ، وبالطبع كانت

تلك المجادلات بسيطة بطيئة فى بادىء الأمر ، ولكنها كانت تبنى حاجزاً بين الاثنين كما وترت العلاقات بين الأب وابنه ، وكما أثرت بالنسبة لسعاد .

قالت الأم إنها كانت تعمل مع زوجها بتضامن تام على تربية طفليهما حتى بلغ أحمد تمام السنة الأولى من عمره ، ولكن هذا التضامن ضعف حينما كبر أحمد وأمكنه أن يوضح بأعماله أنه مخالف لسعاد ، فابتدأت الصعوبات تظهر ، وشوهدت بنوع خاص فى حالة ذلك الطفل أحمد النحيل الجسم الزائد الحركات ، قياساً على حال طفل عمره خمس سنوات مثله . لذلك كان لزاماً أن نرشد الوالدين إلى أهمية تربية العادات الصحيحة ، وإلى ضرورة استمرار التعاون المشترك بينهما لإصلاح حال أطفالها ، حتى يمكن تهيئة جو ملائم ، بحيث يتمكن الأطفال من الاستمتاع بما فى منازلهم من منافع .

الرابطة الانفعالية

توجد الصلة الانفعالية بين الوالدين وأبنائهم وهذه الصلة هى مميزة للرابطة الطبيعية ؛ وكثيراً ما نسمع الوالدين يرددان : ابنى ، ابنتى ، ولدى ، مع قصد التشديد على ياء المتكلم ، وأقل ما فى هذا التعبير الانفعالى من مظاهر ، هو مظهر الحب الأبوى ؛ وهذا يعنى دائماً ما يكنه الوالدان لأولادهما من المحبة ، ولا يشترط أن يعنى ما يكنه الأولاد لآبائهم من محبة .

أما فى حالة الأم ، فتوجد فترة انتظرت فيها أن يرزقها الله بطفل ، كما قد أملت أن ترزق بطفلها الجديد ، أو على الأقل قدرت مجيئه إن عاجلا وإن آجلا بدون شك ، ذلك لأن الجانب الإدراكى من غريزتها ، إن لم يكن شيئاً محسوساً ولا شيئاً تتذكره ، فقد يكون صورة لم تقع أصلاً ، وأنا وأنت وهى نبتدعها ، فالمرأة التى تتزوج ، ولم ترزق أطفالا بالضرورة تتخيل زواجها المستقبل والطفل الذى تلده ، وصورته التى تفضلها ، فتتجلى عندها غريزة الأمومة ، وتصدر عنها الحركات التى تدل على ذلك كأن تطوى ذراعيها كأنها تضم طفلها إليها .

أما مع الطفل فالحالة غير ذلك ، إذ أنه بعد ميلاده بزمن قصير يبدأ يميز المرأة التى ترضعه وترعاه ، تلك المرأة التى تحبه وتداعبه والصديق الذى يثق به فى حياته المبكرة ؛ وبمعنى آخر يبدأ تمييز أمه .

قال ماكولى : « أيها الأطفال ! انظروا إلى هاتين العينين ، واستمعوا لهذا الصوت الحنون ، واعرفوا فى أنفسكم هذا الإحساس الذى تحدثه فيكم لمسة اليد الخفيفة من الأم ، تمتعوا بأمهاتكم وهن بعد أحياء ، فهن أعز ما عندكم من الهبات ، واقرءوا فى أعينهن هذا الحب الذى لا يسبر غوره ، وذلك الهم المقلق الذى يتولاهن عند أقل ألم يصيبكم ، واذكروا أنه قد يكون لكم فى مستقبل الأيام أصدقاء مخلصون محبون ، ولكن لن تجدوا ذلك الحب الذى لا تؤدى معناه الألفاظ ، والذى لا تنالونه إلا من الأم » .

وبالاختصار يمكن الوالدين حب أطفالهما من المبدأ ، أما الطفل فيتعلم حبهما ؛ وحبه هذا يبنى على ما يجاوب به بكاؤه ، وما يقابل به لهوه ، وما تجاوب به محاولته لفت نظر الغير إليه ، وما يقابل به من تمييز لشخصيته إذا ما استطاع عمل الأشياء بنفسه ؛ أى أصبح منتجاً ، مهما بلغ انتاجه من بساطة.

فحبة الطفل لوالديه تسير جنبا لجنب مع شعوره النفسى الذى ينمو فيه كنتيجة لما قوبل به من رعاية دائمة ظللت كل لحظات حياته المبكرة مع والديه ، وطالما كانت العاطفة (وهى مجموع انفعالات تركزت) متجهة نحو شىء أو شخص ، فإن الناحية الإدراكية تكون يسيرة ولا تحتاج إلى مجهود عقلى لفهمها ؛ وهذه حالة الطفل مبدئياً دون ريب ، ويزداد عنده شعور الرعاية والحفظ والحب هذا ، رقياً وثباتاً كلما اتسعت وتجددت تجاربه التى اجتازها فى حياته البيتية .

الرابطة العقلية

كلما نما الطفل وتقدمت به سنو عمره ، نمت عنده رابطة عقلية خاصة . فهو يحفظ أو يتعلم من والديه إذ يتحدث إليهما عن الأشياء ، وكلما استمر نموه ، فوالداه إما راضيان عن هذا النمو أو غير راضيين ؛ وهما فى كلتا الحالتين يظهران للطفل التشجيع والسرور إذا كانا راضيين عنه ، ويظهران له العكس إذا لم يكونا راضيين عنه. وكثيراً ما نسمع الأم تشكو بطء ابنتها فى الفهم أو عمل أى شىء تكلف به ، أو أنها تنسى بسهولة ، ولا تتفرغ لشىء كما أنها لا تحصر فكرها لمدة طويلة ، وأنها متقلبة وبذلك لا تحسن القيام بعمل الأشياء ، وإنما تترك جملة أشياء غير كاملة لتنتقلها من عمل شىء إلى عمل شىء آخر قبل أن تتم الأول .

لا نقول إن هذه الحالات معدومة ، أو غير شائعة ومشاهدة ، وإنما نقرر أن هذه الحالة العقلية لها اتصال وثيق بالرابطة الانفعالية سالفة الذكر ، إذ كيف تشعر الطفلة — الغبية فى نظر والديها اللذين أمنا على أنها خيبت آمالهما جزافا — باطمئنان وسعادة تتمكن بهما من سلوك طريقها الطبيعية فى الحياة ! !

أحضر إلى المعمل التجريبى الطفل (عزيز) لأن أمه ظنته بطىء الحفظ ، وقد اعتبرته لذلك أبله الأسرة (أو الخيبة) ، لأنه لم يحفظ بالسرعة التى كان يحفظ بها أخواه اللذان يكبرانه .

وكان عزيز هذا منتظم الهندام ، غير ماهر فى التعرف بالغير ، يظهر عليه شىء من التردد إذا أقدم على التعرف بغيره ، ويلوح عليه شىء من الهدوء خشية التكلم حذر الخطأ . وقد وجدت حالته الصحية جيدة على العموم ، ولو أن وزنه دون اللازم بمدة أطوال . وبعد محادثة قصيرة معه ، وجد أنه ليس أبله ولا (خيبة) كما ظنت أمه وبالطبع أبوه .

وأثبت الاختبار النفسى (psychological Test) أنه طفل من واضحى الذكاء الممتاز . ومع هذا فقد أثبتت التقارير المدرسية وتقارير والديه من جهة أخرى ، أنه لم يؤد أى عمل مرض بالمدرسة .

ولما اختبر أخواه ، اتضح أنهما ينضمان للفريق الممتاز جداً فى الذكاء ، وهنا وجد السبب الحقيقى للصعوبة والمشكلة القائمة بين عزيز وأسرته . فإنه بموازنته بأخويه الممتازين الذكاء جداً ظهر بطؤه وجموده ، لأنه يمتاز الذكاء فقط ، وبذلك صار أبواه يتعللان له الأعذار فى الظاهر أمام الأصدقاء . فى حين حين كانا يعنفانه دائماً فى غير وجود أولئك الأصدقاء . واستمرار موازنته بأخويه جعله دون شك يشعر أنه غبى ، وأنه جامد يخاف أى عمل أو قول حتى لا يزداد انتقاده .

وأمثال هذا الخطأ شائع فى بيوتنا ومدارسنا المصرية بوجه عام ، وذلك لترك الأطفال الكبار مع الصغار ، وعدم العناية بالتربية الفردية والفحص الشخصى ، وعدم وجود المعامل التجريبية ومدارس الرياضات لأشباه هذه الحالات .

الرابطة الاجتماعية

وهذه هى الحلقة الأخيرة ، والوالد الفخور بابنه والمسرور منه يعرضه لتجارب مختلفة وأشياء ممتازة لا ينالها باقى الأطفال من نفس الأسرة ، لأن حالهم لا تدعو إلى الفخر وليسوا حائزين الرضاء التام من والديهم .

فمثلا فى حالة الطفلين فى المثال المتقدم ، قد كانا يؤخذان هنا وهناك وإلى كل مكان طيب ؛ لأنهما يبهجان ويعززان كل ما يريان ، وكان يمكن النقاش معهما فى الأشياء ؛ لأن أجوبتهما كانت مسلية سارة ؛ أما عزيز فقد أهمل دائماً لأن والديه فضلا ألا يظهر لهما مثل هذا الطفل الغبى .

وهنا من السهل علينا أن نرى كيف كانت علاقة الوالدين الاجتماعية متوترة بالنسبة لطفلهما عزيز (المظلوم) ، وبين ما كانت عليه بالنسبة لأخويه .

***

ولعلنا بعد كل ما تقدم استطعنا أن نوضح العلاقة بين الآباء وأبنائهم ، وساعدنا على فهم أشد الصعوبات تعقداً ، على أن سلامة هذه الرابطة تتوقف على انتباه الآباء المنظم ، ونرى من الحتم أن تكون هذه الرابطة سليمة ومكونة ومرشدة ، إذا قصد أن ينتفع الأبناء من حياتهم .؟

زينب الحكيم